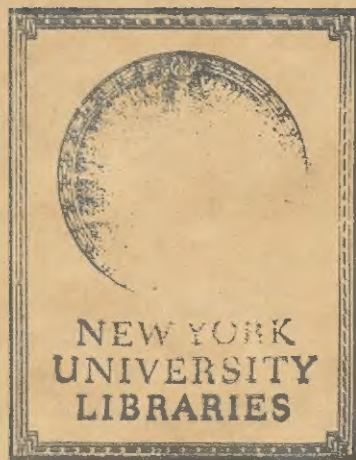


ZIYADAH

RIHLAT IBN JUBAYR

G
370
.13
c.1

NEAR



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

المعهد الخليفى للأبحاث المغربية بيت المغرب

رحلة ابن جبير و رحلة ابن بطوطة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

محاضرتان ألفتا بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر

فى يومى ١٢ و ١٩ مايو سنة ١٩٣٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٩



Ziyadah, Muhammad Mustafa

المعهد الخلفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

/Rihlat Ibn Jubayr /
Ibn Jubayr

رحلة ابن جبير

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

محاضرة أقيمت بدار مكتب التبادل الثقافي للمغرب بمصر

في يوم الجمعة ١٢ مايو سنة ١٩٣٩

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٩

Near East

G

370

.I₃

erl

رحلة ابن جبير

وَرِثَتِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ إِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِ الْقَدِيمَةِ مَعْظَمَ أَقَالِيمِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ ، كَمِصْرَ وَشَمَالِي إفْرِيقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ وَصَقْلِيَّةِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقَ الْأَعْلَى ؛ وَاسْتَعْدَمَتْ وَسَائِلَ الْحُكْمِ وَنَظْمَ الْإِدَارَةِ الرُّومَانِيَّةَ بِهَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمَفْتُوحَةِ لِتُدْعِمَ سُلْطَانَهَا الْجَدِيدَ هُنَاكَ ، وَمِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلُ الطَّرِيقُ الرُّومَانِيَّةُ الْمَعْبُودَةُ ، وَنِظَامُ الْبَرِيدِ الَّذِي يَنْمُو عَنْ أَصْلِهِ اللَّاتِينِي فِيرِيدِي (Veredii) وَمَعْنَاهُ خَيْلُ الْبَرِيدِ ، وَالْدِينَارُ وَهُوَ مَعْرَبُ اللَّفْظِ دِينَارِيُوسَ (Denarius) . عَلَى أَنَّ دَوْلَةَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ فَاقَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةَ الرُّومَانِ فِي فَتُوحِهَا وَأَمْلَاكِهَا ، وَقَدْ اسْتَنْزَمَ ذَلِكَ فَضْلًا عَمَّا كَانَ هُنَاكَ مِنْ قَبْلِ كَثِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْبَرِيدِ وَمَصَانِعِهِ وَمُوظَّفِيهِ ، مِمَّا تَوْجَدُ تَفَاصِيلُهُ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي أُلْفَتْ لِإِرْشَادِ الْعَامِلِينَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ مِنَ الْإِدَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَهَذِهِ الْكُتُبُ هِيَ أَوَّلُ مَا كَتَبَ الْمُسْلِمُونَ فِي وَصْفِ الْبِلَادِ الَّتِي خَضَعَتْ لِحُكْمِهِمْ .

عَلَى أَنَّ اهْتِمَامَ الْمُسْلِمِينَ بِجُغْرَافِيَّةِ فَتُوحِهِمْ وَمَا يَجَاوِرُهَا مِنَ الْبِلَادِ ، وَتَأْلِيفِهِمْ وَتَرْجُمَتِهِمْ لِلْكُتُبِ فِي الْجُغْرَافِيَّةِ الْوَصْفِيَّةِ ، لَمْ يَنْشَأْ عَنْ ضَرُورَاتِ الْإِدَارَةِ وَالْبَرِيدِ وَضَبْطِ الضَّرَائِبِ فَحَسْبَ ، بَلْ كَانَتْ لِنَاقِدِيَّةِ فَرِيضَةِ الْحُجِّ ، وَالتَّجَارَةِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالِاسْتِغْثَالِ بِالْجُغْرَافِيَّةِ كَلِمًا لِأَجْلِ ذَاتِهِ ، وَحُبِّ الرِّحْلَةِ لِتَدْوِينِ الْمَشَاهِدَاتِ ، أَثَرٌ مَلْهُوسٌ فِي عِدَدِ الْمَوْلُفَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا مِنْ تَرَاثِ الْمُسْلِمِينَ . وَمِنْ هَذِهِ كِتَابُ رَحْلَةِ ابْنِ جَبْرِ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ "تَذْكِرَةُ الْأَخْبَارِ عَنْ اتِّفَاقَاتِ الْأَسْفَارِ" ، الَّذِي كَتَبَهُ مُؤَلِّفُهُ حَوْلَى سَنَةِ ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وَتَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الْقُرَّاءِ مَخْطُوطًا

في الشرق والغرب ، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت (William Wright) الإنجليزى سنة ١٨٥٢ م ، وراجع به دى خويه (De Goeje) الهولاندى سنة ١٩٠٧ ، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم : (Travels of Ibn Jubayr. E. J. W. Gibb. Mem. Series. V. 1907.) كان ابن جبير عربياً أندلسياً ، واسمه أبو الحسين محمد بن جبير الكنىانى ، وقد وُلِدَ فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره . ثم استخدمه أميرُ غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين فى وظيفة كاتب سرّه ، فاستوطن من وقتئذ غرناطة . ويقال إن الأمير أبا سعيد استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدّ يده إليه بقدر من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع ، فأقسم عليه الأمير ميمناً مغلظة ليشرب منها سبعاً ، فشربها صاغراً ، ثم ردها عليه أبو سعيد سبع أقذاح من الدنانير . لذلك أزع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته ، وأقام فى سفره سنتين ، ودون مشاهداته وملاحظاته فى يوميات هى المعروفة برحلة ابن جبير ، فجاءت مدونة وافية لجميع ما شاهده ، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التى مرّ بها ، وقاموساً لمصطلح عصره فى بناء السفن والملاحة البحرية ، وثبتتاً بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وهذا فضلاً عن أنها كانت — على ما يظهر لى — كتاب دعاية للدولة الموحدين ، تمتنى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقاً إلى مصر والحجاز .

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسان ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير ، سنة ١١٨٣) ، إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) ؛ وعبر البحر من هناك إلى سبتة (Ceuta) ، فألقى بها سفينةً للجنوية

(Genoese) مقلعة إلى الإسكندرية ، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) . وسارت السفينة عبر الزقاق (Gibraltar) مساحة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية (Denia) ، ثم اتجهت غرباً فمرت بجزائر ميورقة ومينورقة وسرّدانية ؛ وطرأ عليها قبالة برّ سرّدانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أنت ، ثم استطاع رائسها أن يصل بها إلى الشاطئ السرداني ، فجدّد المسافرون هناك الماء وامتناروا . ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية ، فوصلت إليها على متن ريح عاتية ، وأرست على شاطئها عند موضع لم يذكره ابن جبير ؛ ثم فارقت برّ صقلية واتجهت غرباً حتى حاذت برّ جزيرة إقريطش (Crete) تقديراً لا عياناً ، واستقرّ بها النوى أخيراً عند الإسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس) ، أى أنها استغرقت في سفرها من جزيرة الطريف إلى الإسكندرية ثلاثين يوماً .

كان أول ما شاهده ابن جبير بثغر الإسكندرية أن طلع أمناء السلطان — وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبي — إلى المركب ، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحداً واحداً ، لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول إلى البرّ . وقد آلم ابن جبير أن يُطلب إلى المسافرين — وهم حجاج مسلمون لم يستصحبوا معهم سوى زادٍ طريقهم — أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم ، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليه الحول . ثم طاف ابن جبير بالمدينة ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه ، وشاهد بقايا العمار البطليموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء ، كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض . وقد شاهد ابن جبير وهو بالإسكندرية دخول جماعة كثيرة من أسرى الحملة الصليبية الجريئة التي كان أرناط (Renaut de Châtillon) صاحب الكرك ، قد أنفذها ذلك العام في البحر الأحمر لغزو بلاد

العرب والاستيلاء على مكة والمدينة ، ليصيب المسلمين في مقتلهم ، وصلاح الدين بعيد في شمالي الشام ؛ وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قارت سقنها ساحل الحجاز ، وكان أولئك الذين شاهدوا ابن جبير من الأسرى جزءاً مما وقع في أيدي المسلمين من جنودها .

إنما يلاحظ أن ابن جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضاً ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنوبيين على يد عمال صلاح الدين بالإسكندرية ، وهذا نقص يؤسف له ، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلعه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين في الموانئ الإسلامية من جديد ، ولأوجب عليهم القصد في العبارة المتواترة في كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين في الموانئ الإسلامية كان من أكبر الأسباب التي أثارت أوروبا للحروب الصليبية .

ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ إبريل) إلى القاهرة ، حيث نزل بفندق أبي الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو ابن العاص . وأقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار في أثناءها مسجد الحسين ، حيث رأى في جدار الحائط الذي يستقبله الداخل حجراً شديداً السواد ، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الحديثة الصقل . ثم زار القرافة ، ومسجد الشافعي ، والمدرسة الناصرية التي بناها بجواره السلطان صلاح الدين ، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة ، ”يخيل لمن يتطوَّف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، يزارها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها“ . ولقد لقي ابن جبير شيخ هذه المدرسة وهو نجم الدين الخبوشاني ، ولم يبق من رجال مصر سواه ؛ وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضي الفاضل ، ووصف لنا بعض أولئك الرجال

الذين أسسوا الدولة الأيوبية في مصر ؛ على أنه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد
بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته في بلاد الشرق الأدنى ، وقد صورته
في عبارة أنيقة دقيقة فقال : ” إنه لا يأوى لراحة ، ولا يتخذ إلى دعة ، ولا يزال
سَرَّجُهُ مجلسه ... ؛ وسمعنا أحد فقهاء ... المسلمين بسُدة هذا السلطان والحاضر
مجلسه يذكر عنه ... ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه ... إحداها أن
الحلم من سجاياه ، فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه ، أما أنا فلأن
أخطي في العفو أحبُّ إلى من أن أُصيب في العقوبة ... ؛ وقال أيضاً ، وقد
تَنوَّشت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر مَنْ سَأَفَ من أكارم العرب
وأجوادهم ، والله لو وَهَبْتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرُها له ، ولو
استفرغتُ له جميع ما في خزائني لما كان عوضاً مما أراقه من حرٍّ ماء وجهه في
استمناحه إياي ... ؛ وحضره أحد مماليكه المتميزين (كذا) لديه بالخطوة والأثر
مستعدياً على جمال ذكر أنه باعه جملاً معيباً ... ، فقال السلطان له ما عسى أن أصنع
لك والمسلمين قاضٍ يحكم بينهم ، والحقُّ الشرعيُّ مبسوطٌ للخاصة والعامة ... ،
وإنما أنا عبد الشرع ... ، فالحقُّ يقضى لك أو عليك ... “ .

هذه صورة لصلاح الدين الذي تمَّ على يده تأسيسُ الدولة الأيوبية في مصر
والشام ، وكان له الفضل في إعادة السنية إليهما . وكان صلاح الدين قد أبدل
الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبني العباس منذ الحرم سنة ٥٦٧
(سبتمبر سنة ١١٧١) ، وقد لحظ ابن جبير ذلك في كثير من الاغتباط ، وترك
في يومياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة ، إذ ” يأتي للخطبة لباساً
السواد على رَسم العباسية ، وصِفَةُ لباسِه بُرْدَةٌ سوداء عليها طيلسان شَرِب
أسود ، وهو الذي يسمى بالمغرب الإحرام ، وعمامة سوداء ، متقلداً سيفاً ؛ وعند
صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول ارتقائه ضربة يُسمع بها الحاضرين ،

كانها إيدانٌ بالإنصات ، وفي توسّطه أخرى ، وفي انتهاء صعوده ثالثة . ثمّ يسلم على الحاضرين يميناً وشمالاً ؛ ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تحزيعٌ بياض ، قد رُكّزتا في أعلى المنبر . وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة ، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم "يتهادى بين رايتين سوداوين يتسكهما رحلان من قوّة المؤذنين ، وبين يديه ساعياً أحسدُ القوّة ، وفي يده عود مخروط أحمر قد رُبط في رأسه مرّسٌ من الأديم المقتول رقيقٌ طويل ، في طرفه عذبةٌ صغيرةٌ ينفّضها بيده في الهواء نفّضاً فتأتى بصوت عالٍ يسمع من داخل الحرم وخارجه ، كأنه إيدانٌ بوصول الخطيب ، لا يزال في نفّضها إلى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقة" .

ومما شاهدته ابن جبير بالقاهرة القلعة ، ولما يكتمل بناؤها . كما عين سور القاهرة والخندق الحاق به ، والقناطر التي ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الإسكندرية الصحراوي ؛ وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش . وقد بين ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من القلعة سكناً وحصناً ، وأن يمدّ في السور حتى ينتظم مصر والقاهرة ، وأن يحمل من القناطر سداً يدفع به عادية الطامعين في مصر من أهل المغرب وبقايا الفاطميين ؛ ولاحظ أيضاً أن جميع المسخّرين لتلك المنشآت كان من أسرى الفرنج . وهذا كله صحيح متواتر في المراجع المعاصرة ، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه . غير أنه قرّر وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر ، وشرح رسم أولهما ، وقال إن الثاني على مثل ذلك الرسم بعينه . على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستاناً ما على نسق ما ابتناه مخدومه نور الدين بن زنكي بدمشق ، ما عدا أنه أمر بأن تُعمل خزانة الأشربة التي كانت للقصر الكبير الفاطمي مارستاناً للمرضى . ولعل ابن جبير رأى فعلاً مارستان أحمد بن طولون

بين القاهرة ومصر ، فظنه أيضاً من مستحدثات صلاح الدين ؛ وكان جامع ابن طولون قد تحول في ذلك العهد إلى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحلّقون فيه ، أى يعقدون حلقات الدرس به .

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة ، ووصفها وصفاً يدل على أنها كانت في أيام صلاح الدين مثلما هي عليه الآن تقريباً ؛ وسَمَّى هرمى خوفو وخُفرع باسم ”الكبيرين“ ، وهرم منقرع باسم ”الصغير“ ، وذكر أنه كان دون هذا ”الصغير“ خمسة صغار متصلة ، فكأنه رأى الهرم الرابع ، كما رأى تمثال أبي الهول ، وسماه باسم ”أبي الأهوال“ . وقد زار ابن جبير عدا ذلك بلدة الجيزة ، وجزيرة الروضة ، ومقياس النيل ، وجامع عمرو بالقسطاط ، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بها الصليبيون في أواخر أيام الدولة الفاطمية .

ثم سافر ابن جبير من القاهرة في النيل إلى قوص ، فاجتاز على مدن الصعيد دون أن ينزل بإحداها ، ما عدا المدن التى توقفت المركب عندها بأمر السلطات المحلية ، كمنية ابن خصيب وأسيوط وأخميم ، حيث أحصى المسافرين واستدفعوا الزكاة عن ما لديهم من المال كما حدث بالإسكندرية . وقد وصف ابن جبير هذه المطالب المتكررة بأنها سرقة مُقنَّعة ، و ”إدخال للأيدى إلى أواسط التجار“ .

ووصل ابن جبير إلى قوص يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ٥٧٩ (١٩ مايو سنة ١١٨٣) ، فوجدها حافلة الأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحبشة . ثم فصل منها إلى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور ، وهو طريق التجارة الدولية في القُفْل وأنواع البهار التى انبنت على مكاسبها عظمة الدولتين الأيوبية والمملوكية ، كما انبنت عظمة الإمبراطورية البريطانية على تجارة الشاي وتوابل الهند في القرن الثامن عشر .

ولا مبالغة في وصف ابن جبير لضخامة تلك التجارة ، حين قال إنه رام في هذه الطريق "إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند ، الواصلة إلى اليمن ، ثم من اليمن إلى عيذاب من أحمال الفلفل ؛ فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازى التراب قيمة " . وقد امتدح ابن جبير أحوال الأمن العام في هذا الطريق ، حين قال : "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس " .

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها إلى جدة ، فاكتفى مكانا في إحدى السفن المخصصة لنقل الحجاج بين الثغرين ، واسمها الجلاب والواحدة جلبة . وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفاً فريداً في مؤلفات المسلمين ، فقال بأنها "ملفقة البناء ، لا يستعمل فيها مسمار ألبة ، إنما هي مخرطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويقتلون منه أمراسا يخيطنون بها المراكب ، ويخللون بها بدس من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم ، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلاين عودها ويرطب ، لكثرة الشّباب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل ، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها " . على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم ، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض كأنهم في أقباص الدجاج ، فيستوفى صاحب الجلبة منهم

تَمَّتْهَا فِي سَفَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَا يَبَالِي بِمَا يَصْنَعُ الْبَحْرُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ أَصْحَابُ تِلْكَ
السَّفَنِ يَقُولُونَ عَلَيْنَا بِالْأُلُوحِ (الْوَحِ السَّفِينَةِ) وَعَلَى الْحِجَاجِ بِالْأُرُوحِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ
هَذِهِ السَّفَنَ لَمْ تَخْلُقْ فِي نَفْسِ الْحِجَاجِ شَيْئاً مِنَ الطَّمَانِينَةِ ، وَكَفَى قَوْلَ ابْنِ جَبْرِ
فِي هَذَا الصَّدَدِ إِنَّهُ وَأَصْحَابَهُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ مَاتُوا مَرَاراً وَحَيُّوا مَرَاراً .

ثُمَّ فَصَّلَ ابْنُ جَبْرِ مِنْ جَدَةِ يَوْمِ ١١ رَبِيعِ الْآخِرِ ٥٧٩ (٢) أَغُسْطُسَ
سَنَةِ (١١٨٣) قَاصِداً مَكَّةَ ، فَوَصَلَهَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَدَخَلَهَا مِنْ بَابِ الْعَمْرَةِ ،
وَطَافَ بِالْكَعْبَةِ طَوَافَ الْقُدُومِ . ثُمَّ طَفِقَ يَتَعَرَّفُ عَلَى أَمَا كُنَ الزِّيَارَةِ ، وَقَدْ تَرَكَ
وَعَصاً دَقِيقاً ضَافِياً لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَكَّةَ نَفْسَهَا فِي سَبْعِينَ صَفْحَةً مِنْ كِتَابِهِ ، فَجَاءَ
وَثِيقَةً أَثَرِيَةً لِتِلْكَ الْبَقَاعِ وَأَحْوَالِهَا فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهِجْرِيِّ . وَيَتَخَلَّلُ
هَذَا الْوَصْفَ مَلاحِظَاتُ لَابْنِ جَبْرِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ فِي دِرَاسَةِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ : مِنْهَا
أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ عَامَةً كَانُوا يَتَعَبَّرُونَ بِالْحِجَاجِ — وَلَيْسَ مَوْسِمُ الْحَجِّ — مِنْ أَعْظَمِ
غَلَاتِهِمُ الَّتِي يَسْتَفْعِلُونَهَا ، يَتَهَبَّوْنَهَا بِأَنْوَاعِ الْمَكُوسِ ؛ وَأَنَّ مُكْتَرَأَ الْحُسْنَى
أَمِيرَ مَكَّةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، لَمْ يَشُدَّ عَنْ بَقِيَّةِ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي جَشَعِهِمْ وَتُرُويعِهِمْ
لِلْحِجَاجِ ؛ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَهُ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ إِبْطَالِ هَذِهِ الْمَكُوسِ ،
وَتَعْوِيزِهِ أَمِيرَ مَكَّةَ بِمَالٍ وَطَعَامٍ يَرْسِلُهُ إِلَيْهِ كُلِّ سَنَةٍ ، عِدَاةً إِقْطَاعَاتٍ عَيْنِهَا لَهُ
بِصُعِيدِ مِصْرَ ، قَدْ خَفَّفَ كَثِيراً مِنْ مَتَاعِبِ الْحِجَاجِ .

وَمِنْ مَلاحِظَاتِ ابْنِ جَبْرِ أَيْضاً أَنَّ أَشْرَافَ مَكَّةَ كَانُوا عَلَى مَذْهَبِ
الزَّيْدِيَّةِ ، يَرِيدُونَ فِي الْأَذَانِ ”حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ“ ، وَلَا يَجْتَمِعُونَ مَعَ النَّاسِ
فِي الصَّلَاةِ ، إِنَّمَا يُؤْمِمُ إِمَامٌ خَاصٌّ . وَمِنْ مَلاحِظَاتِهِ أَيْضاً عَادَةُ التَّهْنِئَةِ بِالْهَلَالِ
الْجَدِيدِ عِنْدَ أَهْلِ مَكَّةَ ، يَتَصَافَحُونَ وَيَتَغَافِرُونَ وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كِفْعَالِهِمْ
فِي الْأَعْيَادِ ؛ وَكَانَ الْأَمِيرُ مَكْتَرِئُ بَيْكَرٍ إِلَى الْحَرَمِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرِ بِحَاشِيَتِهِ
وَقَوَادِهِ وَحَرَابَتِهِ لِاسْتِقْبَالِ التَّهْنِئَةِ بِالشَّهْرِ الْجَدِيدِ ، بِاعْتِبَارِهِ السُّلْطَانُ الْحَاضِرُ

في مكة . على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية ، فيدعو خطيبُ الجمعة للخليفة ، ثم لأمير مكة ، ثم للسلطان صلاح الدين ولولى عهده وأخيه العادل أبي بكر . وقد لاحظ ابن جبير في صلوات الجمعة بمكة أنه عند ما يأتي الخطيب على ذكر صلاح الدين تحقّق الألسنة بالتأمين من كل مكان ، اعترافاً بفضله على العالم الإسلامي عامة ؛ ولا عجب أن يُفرد أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهائلة ، فقد هدم الدولة الفاطمية ودعوتهَا من مصر بغير حرب ، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل ، وهذا فضلا عما بلغه من التوفيق في الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهده .

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مقدّم الملك سيف الإسلام طغتكين أخى صلاح الدين من مصر ، وكان في طريقه إلى اليمن التي دانت للأيوبيين ؛ وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفاً دقيقاً ، حيث مشى الأمير مكثراً إلى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع ، والناس في موسم الحج من جميع الأقطار على جانبي الطريق ، وفي ذلك دلالة على أن هيبة الدولة الأيوبية كانت تفوق كل هيبة في عصرها . إلى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريباً ، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه في وصف معالم مكة قد كتب عن رؤية وتحقيق . ثم أهل شوال ، وهو فاتحة أشهر الحج ، فخرج ابن جبير وترك في مدونته وصفاً دقيقاً لجميع المناسك والمراسيم في عصره ، وذكر في خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذاك العام من الرجال والنساء . ثم رحل إلى المدينة ، وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوي ، كما أكمل كتابه بوصف ذلك المسجد الشريف ، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع إلى وطنه . غير أنه لم يرجع من حيث أتى ، بل رافق الركب الشامل لحاج العراق وخراسان وكردستان والشام ؛ فسار إلى العراق في ٨ الحرم سنة ٥٨٠ (٢١ إبريل سنة ١١٨٤) ، واتبع طريقاً

طويلا إلى الأندلس ، فأضاف إلى مؤلفه قيمة جديدة بما دونّه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثور البحر الأبيض المتوسط في عصره ، كما سيلى .

مرّ ابن جبير في طريقه إلى العراق بالقادسية ، وكانت إبان الفتوح الإسلامية الأولى ثغراً من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبي وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم ؛ وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات . ثم نزل على الكوفة ، وهي المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكراً دائماً للمسلمين في فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الإسلامية في خلافة علي ، وفي أوائل أيام الخلافة العباسية أيضاً ؛ وألفها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، الغامر منها أكثر من العاصر . ثم رحل إلى الحلة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، تحفّ بها من جانبيها سلاسل من حديد قدر بطت إلى خُشب مُثَبَّتة في كلا الشطين ؛ وقد اجتاز ابن جبير بقرب الحلة جسراً ثانياً على نهير يسمى النيل ، وهو أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير إلى المدائن ، عاصمة الدولة الفارسية قبل الإسلام ، فوجدتها خراباً . ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يوماً ، وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ، كما شاهد بجهاتها كثيراً من الخراب مما جعله يقرر في يومياته أن بغداد " وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهيرُ اسمها " . وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالإضافة إلى ما جاء في كتاب الخطيب البغدادي مثلاً أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول على يد هولاء

وجنوده ، يرجع إليه المؤرخ ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها . فضلاً عن ذلك ففي ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة في أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس ، منها وصف الخليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخلفي ، فإذا به ” في فتاء من سنّه ، أشقرُّ اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسنُ الشكل ، جميلُ المنظر ، أبيضُ اللون ، معتدلُ القامة ، رائقُ الرّواء ، سنّه نحوُ الخمسِ وعشرين سنة ، لباساً ثوباً أبيضَ شبه القباء ، برسومٍ ذهبٍ فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية ... متعمداً بذلك زى الأتراك “ . ومن ملاحظات ابن جبير في بغداد أيضاً أن جميع العباسيين كانوا في الواقع معتقدين في دورهم اعتقالاتاً جميلاً ، لا يخرجون ولا يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسه وزير في ذلك العصر ، إنما له قَيِّمٌ يُعرف بالصاحب الأستاذار ، يقوم على جميع شؤون الدور الخليفية ، ويُدعى له إثر الدعاء للخليفة . هذا ولابن جبير ملاحظة عامة في أهل بغداد ، وهي أنهم كانوا — كأهل روما في أواخر أيام الدولة الرومانية — ” لا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنّع بالتواضع رياءً ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياءً ، يزّددون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ... قد تصوّر كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغرُ بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمر البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يمتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم “ .

ترك ابن جبير بغداد إلى الموصل يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ (٢٨ مايو سنة ١١٨٤) صحبة من بقى من الحجاج من أهل الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمّر على الركب سلبجوقه خاتون زوج نور الدين صاحب آمد ، وخاتون

أم عز الدين صاحب الموصل . فمرّ بسامرا ، وهي سرّ من رأى عاصمة العباسيين أيام المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبدة من رأى ، قد استولى عليها الخراب إلا بعض جهات قليلة . ثم وصل تكريت ، وهو البلد الذي ولد فيه السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئة بني أيوب قبل أن يتصلوا بهما الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بالشام . ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ، وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ، ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدنيوية المريبة ، ولعله لم يعجبه برؤس نساء البلد راكبات لاستقبال الأميرة وهي تدخل المدينة في عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما رآه ما رآه بالموصل نفسها من حصون ومدارس وجوامع ومارستانات .

ثم رحل ابن جبير إلى نصيبين ، ومنها إلى دارا ، فإردين ، فدنيسر ، فأرأس عين التي سميت بهذا الاسم لنبع نهر الخابور من عيون بقرها . ولابن جبير ملاحظة لطيفة بصدد أمراء تلك البلاد ، إذ شبههم بملوك الطوائف بالأندلس ، "كلهم قد تحلّى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق" . إلا صلاح الدين الأيوبي الذي أفرد ابن جبير في كل مناسبة بما هو قين به من التبجيل ، فقال إن هذا "اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردّها التجريح" .

ثم وصل ابن جبير إلى حرّان ، فأقامها اسما على مُسمّى من شدة ملاقاته من حرّها ، ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشتق اسمه من هوائه ؛ ثم رحل منها إلى سروج التي نسب الحريري إليها أبا زيد السروجي بطل مقاماته . وعبر ابن جبير الفرات عند سروج إلى قلعة نجم ، التي عرفت قبل باسم جسر منبج ، وصار بذلك في مملكة صلاح الدين الأيوبي ؛ على أنه لم يشأ أن يفوت تلك الفرصة

بدون أن يقرّر أن حدود النفوذ الأيوبي كانت أبعد مدى من ذلك الحد الجغرافي ، وأن سيادة صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة في جميع البلاد التي مرّت بها من الموصل إلى سروج .

ثم قصد ابن جبير إلى حلب عن طريق الرحبة ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بصدد حلب إنها سميت بذلك الاسم لأن إبراهيم عليه السلام كان يحب عندها غنما له ، ويتصدق بلبنها ، على أنها كانت حسبا جاء في دائرة المعارف الإسلامية من منشآت الحِيثيين . واسمها في لغتهم حلب ، ومنها اسم حلب الحالي . ثم رحل ابن جبير من حلب إلى دمشق ، فرّ على قنّسرين وتل تاجر وباقدين ، وتمنى والمعرة وجبل لبنان . وحمّة والرّسن وحص ؛ وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن مارستان ، وأن جميع الخانات التي أوى إليها في طريقه كانت كأنها القلاع امتعا وحصاة وأمنا . ووصف ابن جبير الجامع الأموي بدمشق وصفا بديعا وأتى على تاريخه تفصيلا ، كما وصف حجرة الساعة الدفاعة به ، وسماها المنجاة كتسمية أهل الأندلس في ذلك العصر للساعات الدفقة التي اشتهرت بها بلادهم . على أن عبارات ابن جبير بصدد ما شاهده بدمشق من المباني والمبائر تشتمل على ملاحظات له ذات أهمية كبرى في معرفة الحال الدينية والاقتصادية بالشام والشرق الأدنى في ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة والزيدية والإمامية والإسماعيلية والنصيرية والغراية وغيرها ، وفي ذلك دليل على أن الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب ريحهما تماما على يد صلاح الدين ؛ على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة من الطوائف السنية التي نشأت لمناهضة الشيعة في ذلك العصر ، وهي طائفة النّبوية ، وكانت تدين بالفتوة ، وتكفي الإشارة هنا إلى الفتوة وسراويلها فهي موضوع يحتاج حتى الآن

لبحث طويل ، بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر عليه ليوضحه للناس .

أما ما جاء في ابن جبير هنا بشأن الحال الاقتصادية بالشام فهو أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تُعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين في أنحاء البلاد ، وقد دُلَّ على ذلك بما شاهدته من نشاط وتبادل بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتل بحرب أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : ” ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتمل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى يختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا في هذا الوقت ... من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ... فنارله هذا السلطان وضيَّق عليه وطال حصاره ، واختلاف القبائل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهى من الأمانة على غاية ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد “ . هذا وإني أحيل من يطلب المزيد في هذا الموضوع إلى مذكرات أسامة بن منقذ الشيزرى المعروفة باسم كتاب الاعتبار ، وإلى قصة الطلسم التي عُرِّبت حديثاً ليرى أن الحروب الصليبية لم تقسد كثيراً من العلاقات الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيراً أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق إلى عكا بعد إقامة شهرين وزيادة ،
ليركب البحر منها إلى بلاده ، ولا يكاد القارئ يأتي على الجملة الأولى من يوميات
ابن جبير بصدد عكا حتى يأتي على عبارة فيها التفات ، وهي أن أسفار السفن من
عكا في الخريف — وهو أحسن أوقات السفر حين ذاك — كانت تعرف عند أهل
الشام باسم " الصليبية " ، لتصلب أشعة السفن موافقة للرياح في تلك الأسفار ،
فهل استُمدَّ اسم الحملات والحروب الصليبية — التي كانت على أشدها إبان ذلك
الوقت — من ذلك الاسم العربي ، فجاءت تسمية دقيقة ، ورَمِيَّة من غير رام ؟
هذا وقد سجَّل ابن جبير في ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق إلى عكا ،
وهو في أرض الصليبيين ، أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع
المسلمين بمكس إضافي عن المعتاد ، مقداره دينار صوري على الشخص الواحد ،
وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكي
في جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية . وأهمية
ذلك كله أن هنا مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون إلى نداء
نور الدين ، ولتقرير ما خفي على بعض المؤلفين في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو
أن المغاربة من المرابطين ثم الموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد
الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت في الواقع
بالأندلس قبل أن تمتد إلى الشام .

ووصل ابن جبير عكا في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ (١٨ سبتمبر سنة
١١٨٤) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبهها ابن جبير في العظم
بالقسطنطينية التي لم يرَها . ثم عِلِم أن مركبا فرنجيا على وشك الإبحار من مدينة
صور إلى بجاية بتونس ، فذهب إلى صور يريد السفر ؛ غير أنه استصغر المركب ،
فرجع إلى عكا بجراً ، واكترى هناك مكاناً في سفينة جنوية ، قصدها مَسِينَة

بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتو ر سنة ١١٨٤) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التي أنشأتها المدن الإيطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى ؛ وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم البِـلـغـريـين ، وهو تعريب حرفي تقريباً للكلمة اللاتينية (Peregrini) ، أو الإيطالية (Pellegrini) ، ومعناها الحاج في هاتين اللغتين ؛ كما قرر ابن جبير أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتخذ من السفينة مكاناً مستقلاً ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج إليه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والحب . وقد ذكر ابن جبير أيضاً بصدد هذا السفر أن عدداً من حجاج المسلمين والنصارى توفي على ظهر السفينة ، فُقذوا في البحر ، ووَرَّثَهم رَأْسُ المركب ، إذ كانت العادة أنه لا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه إذا مات في البحر .

استغرقت تلك السفينة في سفرها إلى مسينة شهرين ، وكان أقصاه في العادة خمسة عشر يوماً ، فأرست على الشاطئ الصقلي يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠ (٩ ديسمبر ١١٨٤) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبراً في قيادة السفينة وإبدال ما تكسر من شُرْعها وقلاعها في عرض البحر ، مما وصفه ابن جبير في دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه في هذا الصدد وثيقة في شرح فنون البحر في العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا تابعة وقتئذ للنورمان (الشماليين) ، الذين أتوا في أوائل القرن الحادي عشر من بلاد نورمانديا إلى جنوبي إيطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة في حروب الدويلات المباردية والولايات البيزنطية هناك ؛ وقد برزت الحوادث من بينهم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذي تملك على تلك البلاد وأسس منها مملكة واحدة ، ثم امتدت أطاعه

إلى صقلية الإسلامية ، فانتزعها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عاماً .

ويعتبر النورمان في التاريخ من طلائع النشاط الذي حرك أوربا إلى دفع المسلمين عن فتوحهم المطالة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعد استيلائهم على صقلية في الحروب الصليبية أيضاً ، وهدموا الدولتين الزيرية والحمادية بإفريقية ، واستولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ، كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية في صقلية ، بحكم وضعها الجغرافي والزمني ، هي في الواقع أوج نماذج الحكم والإدارة والثقافة والمدنية في التاريخ الأوربي في العصور الوسطى ، إذا التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والإسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجاً لم يتم مثله في غيرها من البلاد . ومن شواهد ذلك في كتاب ابن جبير أن النورمان استخدموا ما وجدوه من أنظمة المسلمين في حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعماء في ترويض الناس على الحكم النورماني ، واستعملوا كثيراً من المسلمين على الوظائف ولا سيما في البلاط الملكي ، وسلّكوا أبناءهم في الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم ينسوا أن يقرنوا ذلك بشيء من الضغط المالي ، والتضييق على الحرية الشخصية لحل من ضعف إيمانه على دخول المسيحية . وقد جاء ما كتبه ابن جبير في يومياته بصدد صقلية مصدقاً لكل ذلك ، وكان ملكها غلياًم الثاني (William II) ، حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بالارمة (Palermo) ، وهذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلغ اعتماده على المسلمين : ” شأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجاييب ... ؛ وهو كثير الثقة

بالمسلمين ، وما كنُ إليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر في مطبخته رجلٌ من المسلمين ، وله جملةٌ من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراءه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته والمترسمون بخاصته ... ومن عجيب شأنه المتحدّث به أنه يقرأ ويكتب بالعريصة ... وأما جواريه وحظاياؤه في قصره فمسلماتٌ كلُّهن ... ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيى بن فيتان الطراز ... أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدُها الجوارى المذكورات مسلمة ... وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً ... ". على أنه لا يجب أن يؤدي ذلك الوصف الخاص بـبلاط الملك إلى الاعتقاد بأن عامة المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالاً من إخوانهم في البلاد المسيحية الأخرى ، فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايا ، والأسواق والرباع الإسلامية التي شاهدها ابن جبير بمدن صقلية ، قد ضرب النورمان على المسلمين أتاوة تدفع مرتين في العام الواحد ، وحالوا بينهم وبين تملك الأرض ؛ بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلُّهم أو أكثرهم كاتمٍ إيمانه ، وكذلك نسوة القصر من المسلمات ، فإذا حان وقت الصلاة وهم في خدمة الملك ، خرجوا أفذاذاً من حضرته ليقضوا صلاتهم ، وهذا فضلاً عن أنه لم يكن المسلمين جمعة ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة مسينة التي أرسى عندها أولاً ، ثم شفلودي وثرمة وبالرمة وعَلَقْمَة وحصن الحمة وأطرابنش (Trepanes) . ثم أقبل من ميناء المدينة الأخيرة يوم الاثنين ٢١ ذى الحجة سنة ٥٨٠ (٢٥ مارس سنة ١١٨٤) على ظهر سفينة جنوية إلى الأندلس ، فوصل قرطاجنة يوم الخميس ١٥ الحرم سنة ٥٨١ ، وسافر منها إلى مرسية ثم لبرالة ثم لورقة ثم النصورة

ثم قتال الش (Caniles) ، حتى وصل إلى منزله بغرناطة ٢٢ محرم سنة ٥٨١ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٤) .

لم يبق ابن جبير بعد رحلته هذه بالأندلس طويلاً ، بل رحل إلى الشرق ثانية ، ويقال بصدد ذلك نقلاً عن كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة لسان الدين ابن الخطيب ، إنه لما شاع الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج ثانية ، فسافر من غرناطة في ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ (٢٧ إبريل سنة ١١٨٩) . ولست أعلم من تفصيلات تلك الرحلة سوى القصيدة التي نظمها ابن جبير ليشكو بها إلى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه بالحجاج في ميناء الإسكندرية ، وهي قصيدة طويلة في ثلاثة وخمسين بيتاً ، وقد أشار فيها ابن جبير إلى الفتح الصلاحي لبيت المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه إلى غرناطة في ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ (٥ سبتمبر سنة ١١٩١) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة إلى مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ؛ وانقطع إلى إسماع الحديث والتصوف وتروية الشعر . على أنه لم يبق بالمغرب طويلاً تلك المرة أيضاً ، بل رحل إلى الشرق مرة ثالثة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وسبب تلك الرحلة — حسبما ورد في كتاب الإحاطة أيضاً — أن زوجته عاتكة بنت الوزير الوقشي ماتت ، وكان كلفه بها جما ، فعظم وجده عليها ، فرحل إلى مكة وجاور بها ، ثم انتقل عنها إلى بيت المقدس ، وتحوّل بعد ذلك إلى الإسكندرية ، فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي بها في شهر شعبان من السنة المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .





Ziyadah, Muhammad Mustafa

المعهد الخيفي للأبحاث والمغربيّة
بميت المغرب

/Rihlat ibn Battutah/

رحلة ابن بطوطة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالجيزة

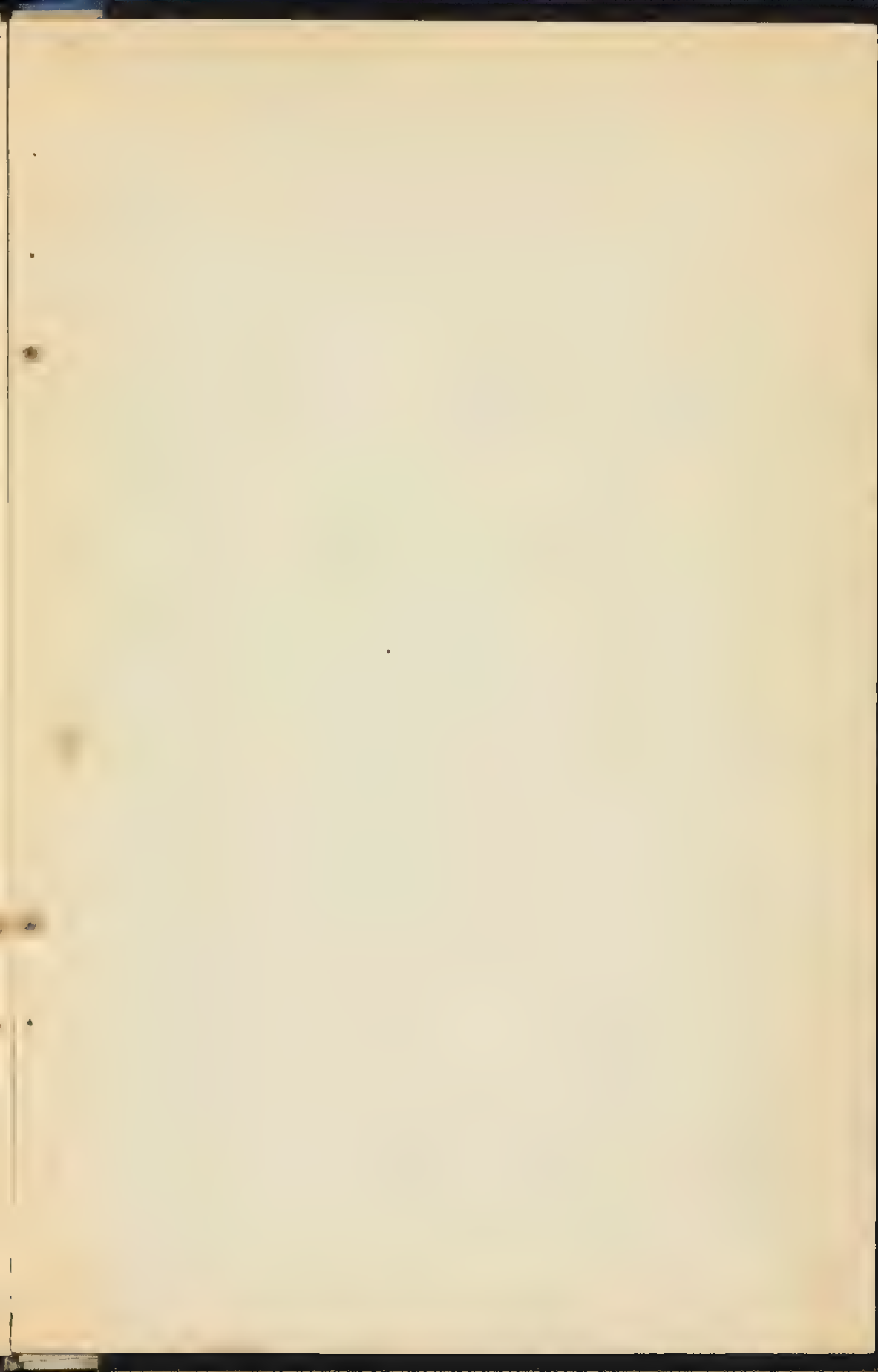
محاضرة أقيمت بدار مكتب التبادل الثقافي للمغرب بمصر

في يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٩٣٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٩



رحلة ابن بطوطة

تتماز كتب الرحلات ، من دون الكتب التي تتشوّف منها أحوال القرون الخالية وأخبارها ، بأنها تحوى عادة صوراً لأحوال القوم الذين يجوس الرحالون خلال ديارهم ومدنهم ؛ وقلماً توجد هذه الصور في كتب التاريخ ، إذ عمل المؤرخ أن يكتب في أخبار الدول ، وحروب الملوك ، وثورات الشعوب ، وما إلى ذلك من تجارب الأمم . وإذا كان لكتاب رحلة ابن بطوطة ميزة ينفرد بها عن معظم كتب الرحلات ، فهي أنه ليس كتاباً في الجغرافية الوصفية للبلاد والجبال التي رآها الرحّالة في أسفاره ؛ بل أنه في معظمه نسخة نادرة من الصور التي ارتسمت في ذهن ابن بطوطة عن الأشخاص والناس الذين ألقت بهم الصدفة في طريقه ؛ فهو صفحة من التاريخ الاجتماعي الإسلامي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، أكثر منه كتاباً في تقويم البلدان والجغرافيا ، مع العلم بأن ابن بطوطة لم يهمل تلك الناحية الجغرافية فيما كتب ، مما سيتضح في المواضع المناسبة فيما يلي .

وُلد ابن بطوطة في سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) في طنجة ، واسمه محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ؛ فهو لواتي أولاً ، طنجي ثانياً ؛ وكان موطن أهله الأصلي بلاد برقة ومنطقة الحدود المصرية الغربية . حيث كانت قبيلة لواتة إبان ظهورها في كتب التاريخ . وقد أنتجت أسرة ابن بطوطة في طنجة عدة قضاة ، فهو إذن وليد أناس عريقين في الاشتغال بالعلوم الدينية ، أو — على حد التعبير الأوربي — من أبناء الطبقة الدينية العليا في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى .

ولذا فالراجح أنه نشأ في بسطة من العيش ، وأنه درس على منهاج آرائه ، فتفقه وتأدب ؛ ويضاف إلى هذا أنه مارس الشعر أيضاً ، وتعلم اللغة الفارسية فيما بعد بالهند . وشواهد ذلك كله في بطن كتاب رحلته المعروف باسم ”تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار“ .

أملى ابن بطوطة هذا الكتاب على رجل اسمه محمد بن جزي الكلي ، وهو كاتب بحاشية السلطان أبي عنان المريني ٧٤٩ — ٧٥٩ هـ (١٣٤٨ — ١٣٥٨ م) بفاس حيث كانت عاصمة بني مرين ؛ وكان ابن بطوطة قد نزل بها بعد أن ألقى عصي التسيار وجوب البلاد ، فأنتهى من كتابته سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) . ويوجد بعض هذه النسخة التي خطها ابن جزي بيده بباريس ، تحت رقم ٩٠٧ ، في ملحق فهرس الكتب العربية بالمكتبة الأهلية (Bib. Nat. Fonds Arabe, Ms. No. 907) .

ظل كتاب ابن بطوطة مخطوطاً حتى اهتم بطبعه ونشره المستشرقون كالعتاد ، فلهم الفضل وحق علينا الشكر . وقد عثر أحدهم أولاً ، وهو السائح بوركهارت (Burckhardt) ، على مختصر لها ؛ ثم بحث بعده كوزجارتن (Kosegarten) ، فوجد نسخة أخرى ترجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى بلاد إفريقية وفارس وبلاد التتر والجزائر ، ونشرها سنة ١٧٨١ م . وفي ١٨٢٩ ترجم القس صموئيل لي (Rev. Samuel Lee) قسماً كبيراً منها إلى اللغة الإنجليزية ، وطبعه في لندن ؛ وبعد ذلك قام العالمان دي سلان (De Slane) ، وإدوارد ديلاورييه (Edward Dulaurier) ، فترجم كل منهما قسماً من الرحلة في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٧ م . ولبت المستشرقون مع هذا ينقبون ويبحثون حتى أتوا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقول بعضهم ببعض ، وقورنت متونها ، وطبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية في باريس سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٩ ، في أربعة أجزاء ومقدمة علمية طويلة ، بتحقيق العالمين دفريري (Defrémery) ،

وسانجوينتي (Sanguinetti) . وبعد ذلك كله ، بل ومن هذه الطبعة الباريسية الكاملة طبعت الرحلة في القاهرة طبعتين عربيتين ، وكل منهما في مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ — ١٨٧٥ ، والثانية سنة ١٩٠٤ ، ولم يفكر أحد القائمين على ذلك — أو لم يستطع — أن يترجم المقدمة أو حواشى المتن إلى العربية . ثم طبع الجزء الخاص بالهند والصين من رحلة ابن بطوطة في هامبورج مترجماً إلى اللغة الألمانية ، سنة ١٩١١ — ١٩١٢ ، بقلم المستشرق مزيك (Mzik) ؛ وقد ترجمت الرحلة كلها إلى التركية أيضاً باسم ”تقويم وقايع“ ؛ وهذا عدا ما قام به كولى (Cooley) ، ودفيك (Devic) ، وهيج (Haig) ، ودلافوس (Delafosse) ، وماركات (Marquart) ، وفراند (Ferrand) ، ويول (Yule) ، وكوردييه (Cordier) ، من بحث وشرح وترجمة لأجزاء معينة من هذه الرحلة الزاخرة . وأخيراً نشرت وزارة المعارف المصرية مختارات منها باسم ”مذهب ابن بطوطة“ في جزئين ، وقام على نشرها أحمد العوامرى بك ومحمد جاد المولى بك ، سنة ١٩٣٤ . وقبل ذلك بخمس سنوات نشر الأستاذ جب (Gibb) ، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة أكسفورد ، مختصراً جديداً بمحواش علمية دقيقة باللغة الإنجليزية ، وقد أشار في مقدمته التحليلية إلى إزماعه نشر الرحلة كاملة مشروحة بالحواشى في المستقبل القريب .

أما ابن بطوطة فكان غرضه الأول من رحلته أن يؤدى فريضة الحج عن طريق مصر ، غير أن سرعة تأثره بأقوال من زارهم من أولياء مصر — على حد قوله — جعلته يفكر ملياً في الرحلة أيضاً إلى غير البلاد الحجازية ؛ ثم أملت عليه ظروف طارئة أن يتخذ طريقاً غير طريق الحج المعتاد كما سيلي ، فرأى من بلاد الشرق الأدنى ما حَبَّب إليه استطلاع بلاد الشرق الأقصى أيضاً ، ولم ينته من رحلته هذه حتى شاهد جميع البلاد الإسلامية في آسيا ، بل زار القسطنطينية

وجزيرة سيلان وبنجالة وجاوة والصين ؛ وقد يكون من المستحسن أن نلم بأحوال تلك البلاد جميعا قبل أن نصاحب ابن بطوطة إليها ، لنكون على بينة ، ولنستطيع تقدير هذا الرحالة الجوال تقديرا جديرا به .

كان العالم الإسلامي في القرن الثامن قد اطمأن إلى حال جديدة بعد أن أحدث المغول به ما أحدثوا : من إزالة الخلافة العباسية من بغداد ، ومن قذف العناصر التركية من جوف الدولة الإسلامية إلى أطرافها ، مما أدى إلى فتوح ودول إسلامية جديدة في الهند وغيرها . وكان محور الارتكاز السياسي والثقافي بين المسلمين شرقا وغربا قد تحول إلى القاهرة التي صارت مقر الخلافة العباسية ، وملجأ اللاندين من المغرب والأندلس بسبب اضطراب الأمور بها ؛ وأضحى سلاطين المماليك يفرضون لأنفسهم مكانا ساميا على ملوك العالم الإسلامي ، باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعون ببيعته . وكانت دولة المماليك في النصف الأول من ذلك القرن قد بلغت الأوج ، وامتدت حدودها شمالا حتى قيلقية ، وجنوبا إلى ما وراء الحجاز ، وغربا إلى إفريقية (أى تونس) ، وشرقا إلى الفرات ؛ وهذا هو عصر الناصر محمد ابن قلاوون . وفي العراق وفارس كانت دولة إيلخانات المغول الذين أسلموا حديثا ؛ وفي البلاد الشمالية حتى نهر إتل (الفلجا) كانت الدولة المغولية الإسلامية التي عرفت باسم القبيلة الذهبية ، كما كانت الدولة المغولية الثالثة في بلاد ما وراء النهر حتى الصين ؛ وفي الهند كانت الدولة الإسلامية في دلهي قد امتدت إلى معظم شبه الجزيرة . وحول تلك الدول الإسلامية العظمى كانت دويلات مبعثرة في آسيا الصغرى ، وأفغانستان ، وشواطئ المحيط الهندي ، وأواسط غربي إفريقيا حيث كانت دويلات الكانم والبرنو ومالي والتكرور . ويكمل هذه الصورة الدول الإسلامية بالمغرب : وهي دولة الحفصيين بتونس ، وكان امتداد مملكتهم من الجزائر الحالية إلى طرابلس ؛ ثم الدولة الزيانية في المغرب الأوسط ؛ ثم دولة

بنى مَرِين في المغرب الأقصى ، وكان سلطانها أبو عنان (٧٤٩ — ٧٥٩ هـ ، ١٣٤٨ — ١٣٥٨ م) هو الذي استقر ببلاده ابن بطوطة بعد أسفاره الطويلة ، وهو صاحب الفضل في تكليف ابن جزى بتدوين ما لدينا الآن من أخبار تلك الأسفار .

على أن ابن جزى وحده قمين بفضل ينفرد به ، فهو صاحب المقدمة والخاتمة في كتاب رحلة ابن بطوطة ، وهو القائم على نشرها ، بمعنى أنه هو الذي تولى تلخيصها والنظر في أبوابها وأقسامها وتحقيق بعض ما سرده عليه ابن بطوطة من أخبار البلاد ووصفها . وقد رجع ابن جزى من أجل ذلك إلى المشهور من كتب الرحلات في عصره ، ولا سيما رحلة ابن جبير ، فنقل منها كثيرا . وليس هذا مما يقلل من قيمة رحلة ابن بطوطة ألبتة ، فإن مقارنتها بغيرها من كتب الرحلات وهي في دور الصياغة الأولى قد جعلها بمنجاة من كثير من الغلط والنقد والشك ، على أنها لم تنج من هذا أو ذاك فيما بعد بسبب غموض أسماء بعض البلاد والمعابر التي جازها ابن بطوطة في أسفاره .

خرج ابن بطوطة من طنجة في رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونية ١٣٢٥ م) للحج عن طريق مصر ، وسنه وقت ذلك اثنتان وعشرون سنة : ثم اتسعت دائرة أغراضه وجَوَلَاتِهِ ، فظلَّ في رحلته هذه أربعة وعشرين عاما تقريبا ، زار في أثنائها معظم بلاد العالم الإسلامي ، ورجع إلى وطنه سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . غير أنه لم يقيم ببلده إلا قليلا ، بل رحل عنها مرة إلى الأندلس ، ومرة أخرى إلى السودان الغربي ؛ وما زال يطوف بالبلاد حتى انتهى به اللطاف حوالى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) ، فأقام بفاس حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) . وإذن فن المستحيل علينا أن نلّم هنا إلمامة فقط بأسماء البلاد والأقاليم التي جاس خلالها ابن بطوطة سنوات كثيرة ، بل سنقف معه حيث يجب الوقوف ،

لننظر إلى الحوادث الدالة على شخصه ، وإلى الصور التي صورت بها بعض البلاد والدول التي حلاله أن يفيض في أخبارها .

مرّ ابن بطوطة في سفره الأول إلى مصر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، ووصل الإسكندرية في أول جمادى الأولى سنة ٧٢٦ هـ (إبريل ١٣٢٦ م) ، فقفى في ذلك الجزء الأول من رحلته سنة تقريباً ؛ ولا عجب من هذا التمهّل ، فقد تزوّج في أثناء ذلك مرّتين ، وطلق مرة واحدة فقط . وكان ممن زارهم ابن بطوطة من مشاهير الإسكندريين الشيخ الزاهد برهان الدين الأعرج ، وقد أقام عنده ضيفاً ثلاثة أيام من مدة إقامته بالإسكندرية ؛ وربما توسّم فيه برهان الدين حبّ السياحة والجولان ، فأوصاه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين أن يزور أفراداً سمّاهم له . ولم يكن حينئذ قد خطر بنفس ابن بطوطة — على حد قوله — أنه سيتوغل في تلك البلاد القاصية ؛ غير أنه يظهر أن هذا الحديث المبروك ، مع رجل عارف ببلاد العالم وهو زاهد فيها ، حرّك في قلب الشاب ابن بطوطة عنماً على زيارة جميع البلاد الإسلامية ، وأن هذا العزم قويّ في نفسه بعد تجاربه أثناء السفر إلى القاهرة . ذلك أنه زار في طريقه إليها أحد الأولياء الصالحين ، واسمه أبو عبد الله المرشدي ، وكان مقياً بمدينة بني مرشد قبالة فؤة على النيل ؛ فرأى ابن بطوطة في منامه وهو عنده أنه طار على جناح طائر عظيم إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وقصّ رحالته المستقبل رؤياه على الشيخ ، ففسّرها له بأنه سيزور مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند ، وأنه سيلقى بالهند عالماً من علماء المسلمين سمّاه له .

ومهما يكن من شيء أو شك في تلك الأحلام والنبؤات ، التي قد يقال إنها وُضعت وضعاً كأَسباب مباركة لرحلات ابن بطوطة ، فالواضح من تنقلاته — ولما يصل القاهرة بعد — أنه ن عازماً على التجول في البلاد فضلاً عن الحج .

وبرهان ذلك تمضيته سنة كاملة في الطريق من طنجة إلى الإسكندرية ،
وتعريجه في الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة على الحلة الكبرى والبرلس
ودمياط وتنيس وفارسكور وأشمون الرمان وسمنود وغيرها من مدن الريف بالدلتا .
وقد جاء في وصف ابن بطوطة لمدينة دمياط أنها كانت مدينة حربية
مسورة ، ” وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها ، إلا بطابع الوالى ،
فن كان من الناس معتبرا طُبع له في قطعة كاغد يَسْتَظْهِرُ به لحُرّاس أبوابها ،
وغيرهم يُطبع على ذراعه فيستظهر به “ : وهذه هى الباسبورت ، أو جواز
السفر ، أو ورقة الطريق في العصور الوسطى في الإسلام .

أما وصفه لمدينة القاهرة فيقصر عن وصف ابن جبير لها بكثير ، على أن
ابن بطوطة قد أورد في أثنائه صوراً لبعض البارزين من أمراء الدولة المملوكية
في أواسط عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، كما أورد قصة تدل على صلابته
هذا السلطان في كل ما يصدره من أمر ، وغواها أن أمرَ السلطانُ بجُلوس قضاة
القضاة الأربعة في حضرته بدار العدل على ترتيب استحدثه ، فلما امتنع قاضى
الحنفية عن شهود المجلس أنفة من ذلك التصرف ، أمر السلطان بإحضاره وإقاعده
حسب الترتيب الجديد .

وترك ابن بطوطة القاهرة إلى عيذاب ، وكان متملكها من العرب ويعرف
بالحدّربى ، وللسلطان الناصر عليه سيادة وحماية ، يؤدى من أجلها ثلثَ نحبي
البلد للخزّانة السلطانية . غير أن الحدربى كان إبان وصول ابن بطوطة إلى عيذاب
يطارد جنود الناصر عن عيذاب ، فتعذّر سفره منها إلى جُدّة ، فعاد أدراجه
إلى القاهرة ، وقصد الحج عن طريق الشام .

وفى الطريق إلى الشام نزل ابن بطوطة ببلدة قَطِيّا بشبه جزيرة طورسينا
على طريق السكة الحديدية إلى فلسطين الآن ، وكانت قطيا وقت ذاك ثغراً برياً

هاما ، ” ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين “ .
وهذه العبارة الأخيرة فيها التفاف ، إذ تدل على أنه حتى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) لم تكن العلاقات السياسية بين دولة إيلخانات المغول بالعراق وبين دولة المماليك قد تحسّنت ، وأنّ الجواسيس كانت منبثة في كل من مصر والعراق لمعرفة نوايا الدولتين نحو الأخرى ، وهذا برغم المعاهدة القائمة بينهما منذ أوائل حكم إيلخان أبي سعيد بن خدابندا (٧١٦ — ٧٣٦ هـ ، ١٣١٧ — ١٣٣٤ م) .

وأخذ ابن بطوطة يتنقل بين بلاد الشام من غزّة إلى حلب ، مع أنه كان يقصد دمشق فقط ، للذهاب منها إلى الحجاز مع ركب الشام ؛ فزار كثيرا من البلاد حتى أقصى الشمال ، ثم ذهب أخيرا إلى دمشق ، وخرج إلى الحجاز مع الركب الشامي في شوال سنة ٧٢٦ هـ (سبتمبر ١٣٢٦ م) ؛ وفي ذلك دليل أيضا على أنه كان يريد الرحلة والحج معا .

هذا ويوجد في ثنايا ما أملاه ابن بطوطة بصدد بلاد الشام شرح للسبب المباشر الذي من أجله اتبع السلطان الناصر بن قلاوون سياسة العداء ضد دولة إيلخانات المغول بالعراق ، مع أن خطرهما كان قد زال تماما عن دولة المماليك ، كما يوجد أيضا السبب المباشر الذي من أجله انتهى الأمر بصلح بين الطرفين كما تقدّم . ذلك أن نائب حلب ، واسمه قراسنقر ، كان قد هرب مع بضعة من أمراء المماليك إلى إيلخان المغول خدا بندا سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) ، خوفا من نعمة السلطان الناصر عليه لريبه في إخلاصه ، برغم ما عرفه من سابق خدماته ، وقد شرح المؤرخ دوسون (D'Ohsson) ذلك كله شرحا وافيا في كتابه تاريخ المغول . وكان السلطان الناصر يبعث الفداوية إلى العراق لاغتيال هذا الأمير . فلم يظفروا به . فلما مات خدا بندا ، وولي ابنه أبو سعيد ، فرّ كبيرُ أمراء المغول

بفارس واسمه جُوبان إلى بلاط الناصر، ووقعت المراسلة بين الملكين واتفقا على أن يقتل كل منهما الأمير اللانذ عنده . فلما انتهى ذلك وقع الصلح، وانتهى النزاع الطويل بين الدولتين ، ماعدا ما أشار إليه ابن بطوطة من بقايا عدم الثقة بينهما ، مما دعا إلى وجود الجواسيس في بلاط كل منهما .

ومما رَوَاه ابن بطوطة بصدد الشام أنه رأى ابن تيمية بدمشق ، وقد وصفه بأنه ” كبير الشام ، يتكلم كثيرا في الفنون ، إلا أن في عقله شيئا “ ؛ وقصة الشيخ ابن تيمية طويلة ، ولمن يريد التعرف عليها أن يذهب أولا إلى ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية .

وقد حجج ابن بطوطة وزار المدينة النبوية ، ووصف بلاد الحجاز ومعالم مكة والمدينة وعادات أهلها ومشاعر الحج ، مما لا يزيد عما في ابن جبير ، كوصف خطيب الجمعة ، وشرح عادة التهنتة في أول الشهور .

ثم ترك ابن بطوطة الحجاز في شهر ذي الحجة سنة ٧٢٦ هـ (أكتوبر ١٣٢٦م) ، مع الركب العراقي ؛ على أنه لم يذهب إلى بغداد مباشرة ، بل ترك الركب عند النجف ، وعرج جنوبا بشرق إلى واسط ثم إلى البصرة والأبلة .

ولابن بطوطة بصدد البصرة حديث لطيف : ذلك أنه شهد بها صلاة الجمعة ، ولاحظ أن الخطيب لحن في خطبته لحنًا كثيرًا ، وراعه طبعًا أن البصرة التي انتهت إلى أهلها رئاسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه الذي لا يُنكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دءوبه عليها . غير أن هذه الملاحظة تدعو إلى الالتفات ، فكتاب رحلة ابن بطوطة ، كما كتبه ابن جزي ، لم يخل من أخطاء نحوية ، فضلا عن احتوائه على تعبيرات غريبة ، وأصاليب قد تخالف ما نعهد للفصحاء ؛ فهل يكون معنى هذا أن ابن بطوطة لم يقرأ نص رحلته بعد إتمامها ، ليصلحها ويضبطها ضبطًا صحيحًا ؟

ثم ذهب ابن بطوطة من الأبله إلى أطراف فارس ، فزار من مدنه تُسْتَرُ وشيراز وإصفهان ، وفي وصفه لهذه البلاد ما يدل دلالة واضحة على أنه كان يريد بتعريجاته هذه أن يزور مشايخ العصر وقبور السلف الصالح . ثم رجع إلى العراق ، فنزل بالكوفة ، ورحل منها إلى بغداد ؛ وقد وافق وصوله إليها وجود إيلخان أبي سعيد بها ، فاتفق له أن يرى موكب هذا السلطان ، وأن يصفه لمن يريد مقارنة مواكب المغول بمواكب الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك بمصر ، كما أوردها القلقشندي في الجزئين الثالث والرابع من صبح الأعشى .

وأقام ابن بطوطة بالعراق شهرين حتى وافى موعد رحيل الركب العراقي إلى مكة ، وسافر في تلك الأثناء إلى تبريز والموصل ونصيبين وماردين . ثم ترك العراق أخيراً إلى مكة ، فحج ثانية ، وأقام مجاوراً بمكة سنة ، فحج ثالثة . ثم رحل سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) إلى اليمن بجزيرة سقطرى عن طريق سواكن ، ولم يكن قد ركب البحر قبلها ؛ وزار زبيد وصنعاء وعدن ، وقد أعجبه من نساء صنعاء أن "للغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء المغرب ، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله ، وتقوم بما يجب له حتى يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ، وإن كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل " . غير أن ابن بطوطة لم يعقب على هذا بأنه تزوج هناك ، مع أن هذا الوصف لا يتأتى إلا لمن خالط أهل البلاد مخالطة تامة . وقد قابل ابن بطوطة ملاك اليمن بصنعاء ، وهو السلطان نور الدين علي بن رسول ، ووصف بلاطه وصفاً يهم المشتغلين بتاريخ اليمن ، لشبهه الكثير ببلاط دولة المماليك بمصر .

ثم عبر ابن بطوطة البحر إلى بلدة زيلع بالصومال الإنجليزي الحالي ، ووصف

تلك البلدة بأنها "أقدر مدينة في المعمور، وأوحشها وأكثرها نبتاً"، بحيث أنه اختار المبيت بالبحر على شدة هوله، ولم يبت بالمدينة لقدرها. ثم سافر إلى مَقْدَشَوْ حاصمة تلك البلاد حين ذاك، وكان سلطانها يسمى عندهم الشيخ؛ وهنا تتجلى قيمة رحلة ابن بطوطة من حيث وصفه لتلك البلاد الإسلامية النائية، التي يستشف منها القارئ مكانة الدولة المصرية بين ملوك العالم الإسلامي في ذلك العصر.

ثم ركب ابن بطوطة البحر من مقدشو إلى كُلوَا على ساحل إفريقية جنوبي زنبار الحالية، وتركها بالبحر إلى مدينة ظُفَار بأطراف اليمن الشرقي، حيث رأى الأغنام والإبل وكافة السائمة تعيش على سمك السردين الذي يكثر هناك؛ ويلاحظ أن الدواب تعلق بذلك السمك في تلك البلاد حتى الآن، كما شاهد زميل لي بكلية الآداب في سفره حديثاً إلى بلاد اليمن.

ثم رحل ابن بطوطة إلى عمان؛ وسافر منها إلى هومز وسيراف، وعبر الخليج الفارسي من هناك إلى القُطَيْف — أو القُطَيْف — باليمامة، وعاد من هناك إلى مكة صحبة ركب الحاج اليماني، وكان ذلك في سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م). وقد حج في تلك السنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وليت ابن بطوطة زاد على هذا الخبر شيئاً من وصف هذا السلطان الذي يعتبر حكمه ذروة عهد الدولة المملوكية بمصر، على أن كتباً أخرى قد جاءت بتفصيلات ضافية في وصف هذا السلطان وأعماله، ولا سيما النويري وبيهرس الدوادار.

ليس ثمت حاجة، بعد تعقب أسفار ابن بطوطة حتى هذه المرحلة، إلى البحث عن شاهد جديد لندل به على أنه كان جَوَّاب آفاق وحِاف أسفار، وبحاجة عن الأولياء والمشايخ. ولو وقف ابن بطوطة عند هذا الحد من أسفاره، لظل كتابه كجميع كتب الرحلة مرجعاً هاماً لمعرفة الأحوال الاجتماعية في جزء

كبير من العالم الإسلامي في القرن الثامن . ولكن ابن بطوطة لم يقف عند هذا القدر من السفر ، ولا بد أنه قرر حوالى ذلك الوقت رؤية بقية العالم الإسلامي ، ويستدل على ذلك — بسهولة — من حركاته وسفراته الغريبة ، إذ سافر من مكة إلى قرية العطوانى على النيل قبالة إدفو بالصعيد الأعلى ، ورحل منها عن طريق بليس إلى الشام ، حتى وصل اللاذقية . ثم ركب البحر من اللاذقية إلى العلّايا ، وعى بالساحل الجنوبي لشبه جزيرة آسيا الصغرى ، وكانت هذه المدينة حينذاك مشتى لسلطين السلاجقة الروم . وقد ضرب ابن بطوطة فى أرجاء آسيا الصغرى وزار معظم مدنها الكبرى ، ومنها قونية وأقصر ويزمير ، وبرصا عاصمة الدولة العثمانية الناشئة ، وقابل سلطانها أرخان بن عثمان . غير أن أهمية هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة ليست فى ذكر المدن ومن عليها ، بل لأنها تعطى صورة للدولة العثمانية فى أيامها الأولى ، وتصف الدويلات والإمارات التركية بآسيا الصغرى ، قبل أن يجعل العثمانيون منها دولة واحدة ؛ وأهمية أخرى لهذا الجزء من رحلة ابن بطوطة أنها تصف نظام جماعات الفتوة والأخية فى تلك البلاد ، مما يدل على أن هذه الجماعات كانت ، بحسب ما ورد فى ابن بطوطة بصدددها ، شبه جمعيات دينية خيرية لأبناء صناعة واحدة ، أو أبناء جهة واحدة ، فى بلد من البلاد .

ثم ترك ابن بطوطة آسيا الصغرى من ثغر صُنُوب (Sinope) إلى شبه جزيرة القرم بحراً ، وقد هاج البحر فى أول تلك السباحة . وكان ابن بطوطة ومسافر من أهل المغرب مثله بأبلوج (Cabin) الطارمة من السفينة ، وهو " القمرة " (Camera) الواقعة قرب السكّان أو الدفة ؛ فطالب ابن بطوطة إلى صاحبه أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ورجع إليه واسترجع ، وقال له : " أستودعكم الله " .

غير أن المقادير لَطَفَتْ ، ووصل ابن بطوطة إلى شاطئ القرم عند ثغر كافا التابع لجمهورية جَنَوَة ، وكان به أكبر أسواق الرقيق المملوكى فى العصور الوسطى . ثم زار مدينة القرم نفسها وآراق ، ورحل منها إلى بلدة الماجر بالقوقاز ، وقصد بِشْدَاغ لزيارة سلطان تلك البلاد ، وهو السلطان محمد أوزبك ، خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، نسبة إلى لون خيامهم وبيوتهم الموهبة بالذهب . وقد حظى ابن بطوطة بالمشول بين يديه ، وزار خواتينه — أى زوجاته — الأربع ، وراقه منهن طبعاً أنهن كنّ باديات الوجوه ، وحوطن الجوارى الصغار فائتات الجمال ، وكانت ثالثتهم — على حسب قول ابن بطوطة — بنت إمبراطور القسطنطينية أندرونيق الثالث (Andronicus III) ، واسمها بَيَلُون (Bayalun) ، وقد قدر له أن يسافر معها إلى القسطنطينية كما سيلي . على أن أهمية هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة ليست فيما وقع له من الحوادث العادية من تنقل وزيارات وتدوين أسماء المدن الداخلة فى حدود القبيلة الذهبية ، بل فى وصف عادات القوم وأحوالهم ، وترتيب البلاط السلطانى عندهم ، مما جعل رحلة ابن بطوطة مرجعاً من الدرجة الأولى فى تاريخ تلك البلاد .

ورأى ابن بطوطة أن يوغل فى البلاد المجاورة والفرصة سانحة ، فزار مدينة بُلْغَار على الشاطئ الأيسر لنهر تِل (الفولجا) ، وهى عاصمة مملكة بلغاريا العظمى فى القرون الوسطى ؛ وأراد أن يذهب منها إلى سيبيريا التى سماها "أرض الظلمة" . لكنه أضرب عن ذلك ، وعاد إلى بلاد أوزبك خان ، فأقام عنده مدة قليلة ، وزار فى أثناءها مدينة حاجى طرخان (أستراخان) ، على مصب الفولجا فى بحر قزوين .

ثم حدث أن رغبت الخاتون بَيَلُون إلى السلطان أوزبك أن يأذن لها فى زيارة أبيها ، فنزل على رغبتها ، وأذن أيضاً لابن بطوطة أن يصحبها لمشاهدة

القسطنطينية ؛ فسار في ركبها برا ، واخترق البلقان عن طريق اختلط تعيينه .
على المحققين ، بسبب غموض بعض أسماء المدن التي ذكر ابن بطوطة أنه مر بها .
على أن وصفه لمدينة القسطنطينية قد جاء صورة قيمة لتلك العاصمة البيزنطية
قبل أن يغيّر العثمانيون بعض معالمها بعد فتحها . هذا ، وفي ثانيا ذلك الوصف
لفظ واحد أضاء المؤرخين الطريق لتفسير كلمة (Saracen) التي أطلقها الأوربيون
على المسلمين حتى الآن تقريباً ؛ إذ يتضح من ابن بطوطة أن البيزنطيين كانوا
يصفون المسلمين بلفظ ”سرا كينو“ ، وهو مأخوذ من لفظ ”الشرقيين“ ،
وإن كان المسعودي يرى في كتاب ”التنبيه والإشراف“ أنه مشتق من لفظ
آخر . وقد أطلق المؤرخون فيما بعد لفظ (Saracen) على جميع المسلمين بالشرق
والغرب . من غير أن يتبينوا أصله ، بل إنهم استعملوه في الأدب الغربي أحيانا
قليلة بمعنى الأجنبي .

ثم رجع ابن بطوطة من القسطنطينية بدون الخاتون بيلون ، إذ رغبت
في عدم العودة إلى زوجها ؛ ووصل إلى مدينة السرا عاصمة السلطان أوزبك على
نهر إاتل . ثم سافر منها إلى خوارزم ، فبخارى وسمرقند وترمد ، وبلخ
وهرة وطوس ، ونيسابور وغزنة وكابل ، وجناني على نهر السند بالهند . وكان
وصوله إليها في أوائل سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) ، أي أن ابن بطوطة ظل متنقلا
حتى تلك المرحلة من أسفاره ثمانى عشرة سنة هجرية .

وقد لقي ابن بطوطة في أوائل تجوُّله بالهند الشيخ الزاهد بهاء الدين القرشي ،
وهو أحد الثلاثة الذين أخبره الشيخ برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أنه
سيلقاهم في رحلته . ثم شاهد بمدينة أبوهَر (Abu har) ، في الطريق إلى دلهي ،
عملية إحراق جثة الميت ومعه أرملته عند الهندوس ، وعلّق على ذلك بأن إحراق
المرأة بعد زوجها ”أمرٌ مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد

زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بأُتة مُتَمَنِّة لعدم وفائها ، ولكنها لا تُكْرَهُ على إحراق نفسها“ ؛ وقد أبطل الحكم الإنجليزى تلك العادة بالهند .

وصل ابن بطوطة أخيراً إلى دلهى عاصمة مملكة الهند الإسلامية ، وسلطانها يومئذ محمد شاه بن طغلق ؛ وقد أفاض ابن بطوطة فى وصف ترتيب هذه المملكة وكرم سلطانها وتواضعه ودفعه للمغارم والمظالم وتحمسه للجهاد ، ولم ينس أن يذكر أيضاً شغفه بإراقة الدماء لأذى جريمة أو سبب ، وقتله لجميع من خالفه ، وإخلاءه مدينة دلهى من أهلها بسبب خطابات وصلته غفلاً فيها سبه وشتمه .

وتولى ابن بطوطة منصب القضاء المالكى فى دلهى ، وما زال على تلك الوظيفة حتى سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١ م) ، أى سبع سنين تقريباً ، ولذا جاء مادونه فى كتابه أضفى وصف لحاشية سلطان مسلم فى العصور الوسطى . ثم أرسله السلطان على رأس وفد للملك الصين بهدية ذكر ابن بطوطة مفرداتها ، فدلنا بذلك على أنواع الطرف التى تبادلها ملوك آسيا فى ذلك العصر ، وكان كل من الوفد والهدية ردّاً على وفدٍ وهديّةٍ مثلهما من الصين .

وقد خرج الوفد الهندى فى ١٧ صفر سنة ٧٤٣هـ (يولية ١٣٤٢ م) ، ولم يكد ابن بطوطة يخرج مع ذلك الوفد من مدينة دلهى حتى أخذت به المقادير إلى حيث لم يحتسب . ففى مدينة كول ، وهى عُلْيُكْرَة الحالية ، على مسافة مائة ميل فقط من مدينة دلهى ، بلغ الوفد أن عصابة من الهندوس قد نزلت ببلدة الجلالى القريبة من كول وحاصرتها ، فأسرع رجال الوفد إلى نجدة البلدة ، ونشبت بينهم وبين العصابة معركة . أما ابن بطوطة فقد وقع فى أيدي بعض الهندوس من رجال العصابة ، فأخذوه وسلبوه جميع ما عليه ما عدا جُبَّةً وقيصاً وسروالاً ، ودخلوا به إلى غابة ، وانقطعت صلته بالوفد إلى الصين ، كما انقطع الأمل بوصول

ذلك الوفد مؤقتا ، إذ استولى اللصوص على متاعه . واستأسر ابن بطوطة رغبة في النجاة من القتل ، وعزم على الفرار بدليل أنه قطع كُمى قيصره لكيلا يأخذه سجنائوه منهما إذا لاذ بالهرب ؛ على أنه خلص من أسره بسهولة في مقابل جُبَّتته التي أعطاها لحارسه ، وكان قد رشاه قبلا بالكُمَيْن .

ولحق ابن بطوطة أخيراً بأعضاء الوفد إلى الصين ، فسار معهم حتى وصلوا جميعاً إلى قَنْدَهار ، فركبوا منها البحر إلى قاليقوت ، إحدى محطات السفن الصينية بالهند . ورأى ابن بطوطة في أثناء تلك السفرة البحرية على ساحل مُلَبَّار (Malabar) معظم بلاد الفُفْلُ والبهار والتوابل ، وأشار إلى أهميتها في التجارة الدولية في القرون الوسطى .

وقد رأى ابن بطوطة بشعر قاليقوت أنواع سفن الصين وعددها ، وذكر كيفية بنائها ، فجاء ما كتبه وصفاً لصناعة السفن الصينية لم يسبقه إليه كاتب في العربية ، كشأن ابن جبير بصدد الجلاب في البحر الأحمر . ولعل أبهى ما في وصف ابن بطوطة للسفن الصينية قوله إنه كان بتلك السفن ما يسمى الآن عند شركات الملاحة البحرية باسم ”كابين دى لوكس“ (Cabine de Luxe) ، وقد سماها ابن بطوطة بالمَصَّارى ، وهذا نصه : ”ويكون فيه [أى المركب] البيوت والمصارى والغرف للتجار ، والمصرية منها يكون فيها البيوت [الغرف] والسنداس [المرحاض] ، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل في مَصْرِيتِه ، فلا يَعْرِف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد “ .

ثم نزلت بابن بطوطة وبالوفد الهندى وهديته النوازل مرة أخرى ، وذلك في مرسى قاليقوت ، إذ تحطم المركب الذى كان به الهدية وسط عاصفة . وكان ابن بطوطة وقتذاك بالشاطىء ، ومتاعه وغِلمانُه وجواريه بسفينة أخرى غير

التي تحطمت ، فلما رأى بحريتها ما حل بالمركب الأول رفعوا قلعهم وأقلعوا ، ومعهم جميع ما ملك ابن بطوطة ؛ فبقى منفرداً على الساحل ، وليس معه إلا فتى كان أعتقه ؛ ولما رأى الفتى ما حلّ بسَيِّده ذهب عنه أيضاً ، ولم يبق لدى ابن بطوطة سوى دنانير معدودة وسجّادة .

لم يشأ ابن بطوطة أن يرجع إلى دلهي ليُعَلِّمَ السلطان بما حدث ، فأقام بساحل ملبار شهوراً ، وانقلب جندياً مجاهداً في خدمة سلطان مدينة هَنُور . ثم رجع إلى قاليقوط ، وعبر البحر منها إلى جزائر ذِيْبَةِ المَهَل ، وهي المعروفة في الخرائط الحديثة باسم جزائر الملديف (Maldives Islands) ، وكان عليها سلطنة اسمها خديجة بنت جلال الدين البَنْجَالِي . وأقام ابن بطوطة بتلك الجزائر ثمانية عشر شهراً ، وتزوج من ربيبة السلطنة خديجة ، وتولى وظيفة القضاء على مذهب المالكي ، وعاش عيشة راضية . ثم تزوج من ثلاث نساء غير زوجته ربيبة السلطنة ، وله بصدد ذلك عبارة فكهة ، نصها ” والتزوج بهذه الجزائر سهلٌ لمدارة الصداق ، وحسن معاشرَةِ النساء ، وأكثر الناس لا يُسمى صدَاقاً ، وإنما تقعُ الشهادة ، وتعطى صداقُ مثلها . وإذا قدمت المركب تزوّج أهلها النساء ، فإذا أراد السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً ، ولم أرَ في الدنيا أحسنَ معاشرَةٍ منهن “ ؛ وهذا وغيره مما جاء في رحلة ابن بطوطة بصدد تلك الجزائر وأهلها ، هو أول وصف معروف لها حتى الآن ، وليته أقام طويلاً ليقص من أخباره بها أكثر مما فعل . غير أن تحمسه للإصلاح وتطبيق أحكام الشرع أوغر منه كثيراً من الناس ، فترك ذِيْبَةَ المَهَل إلى جزيرة سيلان ، ليزور الجبل المعروف باسم قدم آدم عليه السلام ، وهو من مزارات الهند الشهيرة ؛ وقد زار ابن بطوطة بقربه مواضع منسوبة إلى حواء وإلى شيث بن نوح عليه السلام وإلى الخضر أيضاً .

ثم سافر ابن بطوطة أخيراً إلى بلاد المعبر ، وهي المعروفة في الخرائط الحديثة باسم (Coromandel) ، أى الساحل الجنوبي الشرقى لشبه جزيرة الهند . وتحرك منها إلى بنجالة فأَسَام فشبهه جزيرة الملايو ، فسومطرة بجزائر الهند الغربية ، فالصين ، حيث نزل بميناء الزيتون ، وهي تشوان شوفو (Ts'wan-chou-fu) الحالية . وأراد ابن بطوطة أن يؤدى الرسالة التى كلف بها من لدن سلطان دلهى ، على أنه لم يقابل خان المغول طوغان تيمور (٧٣٤ — ٧٧٣ هـ ، ١٣٣٣ — ١٣٧١ م) ، لغيابه عن عاصمته خان بالق (بكين الحالية) وقتئذ .

وليس لرسالة سلطان دلهى أهمية هنا ، إلا من حيث أن خبرها قد سهّل على ابن بطوطة التنقل في بلاد الصين حتى وصل عاصمتها خان بالق ، على أنه لم يَرَ من تلك البلاد الشاسعة سوى المدن القريبة من ساحلها الطويل . ومع هذا فقد أفاض ابن بطوطة في وصف ما رآه من أحوال أهل الصين من المسلمين والوثنيين وصفاً لم يتسنّ لغيره من الرحالة سوى القليلين أمثال سليمان التاجر العربى المشهور ، وماركو بولو الإيطالى قبله ، ومن ذلك أن "أهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصّل ببلادهم من النقود المعدن يسبكونه قطعاً ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل الصينى القطعة منها على باب داره . وإنما كان بيعهم وشراؤهم بما سماه ابن بطوطة باسم "قطع الكاغد" ، أى قطع الورق ، وهي أشبه ما يكون بالبنكنوت في العصر الحاضر ؛ وكانت القطعة من ذلك الورق بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وإذا تمزقت تلك الأوراق أو بليت في يد إنسان حملها إلى دار السكة ، ليأخذ عوضها جُددًا ، ولا يُعطى على ذلك أجرة . على أن ابن بطوطة مخالف هنا لما في رحلة ماركو بولو ، حيث ورد أن البنكنوت البالى كان يستبدل بالجدد في مقابل ثلاثة في المائة من قيمته . ولا ابن بطوطة بصدد الصين وأهلها ملاحظات

وإشارات يضيق عنها نطاق هذه النظرة السريعة ، ومنها أنه وجد بكل مدينة نزها محلة مستقلة للمسلمين ، ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد ، وأن أهل الصين عامة لا يحتفلون بمطعم ولا ملابس ، فترى التاجر الكبير منهم ، الذي لا تحصى أمواله كثرة ، وعليه جبة قطن خشنة .

ثم ترك ابن بطوطة الصين إلى سومطرة ، ومنها إلى ساحل مليبار . غير أنه لم يعرج على دلهي خوفا من سلطانها صاحب الهدية المفقودة ، والرسالة التي لم تُبلِّغ ؛ بل سافر إلى هُرْمُز ، ومنها إلى بغداد ودمشق ، ومنها إلى غزة فدمياط . وقد أقام ابن بطوطة بمصر قليلا ، ثم حج حجته الرابعة ، وكان ذلك في سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨ م) .

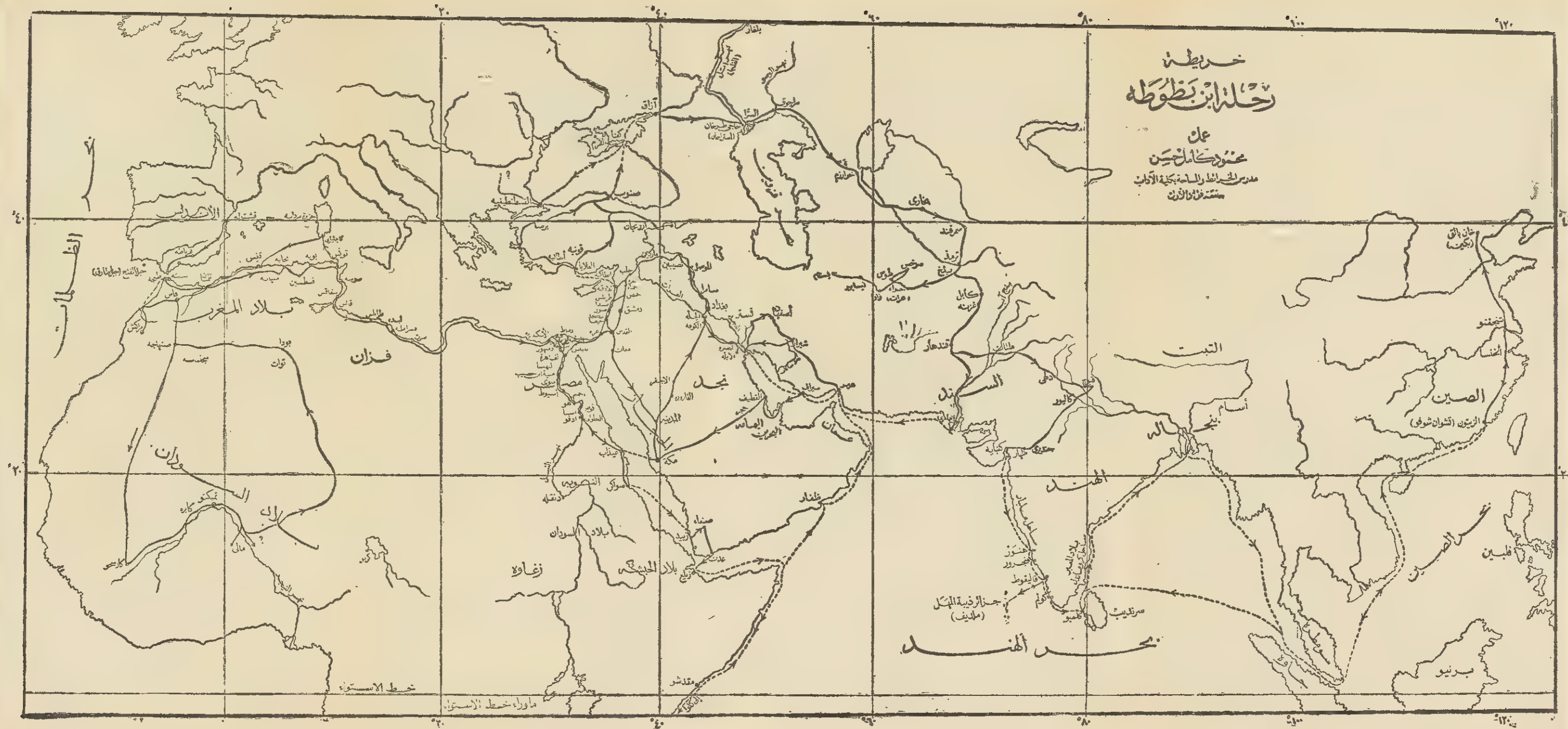
عاد ابن بطوطة بعد ذلك إلى وطنه ، ويظهر أن سبب رجوعه أن سلطانا جديداً قام بمراكش ، وهو السلطان أبو عنان بن أبي الحسن المريني ، وأن ابن بطوطة أراد أن يمكن لنفسه في البلاط الجديد . غير أنه من الغريب أن يعرج ابن بطوطة في طريقه على جزيرة سَرْدَانِيَّةَ بالبحر المتوسط ، مع أنه كان في مقدوره السفر برا حتى مراكش ؛ وقد وصل إلى فاس ، وأقام ببلاط السلطان أبي عنان .

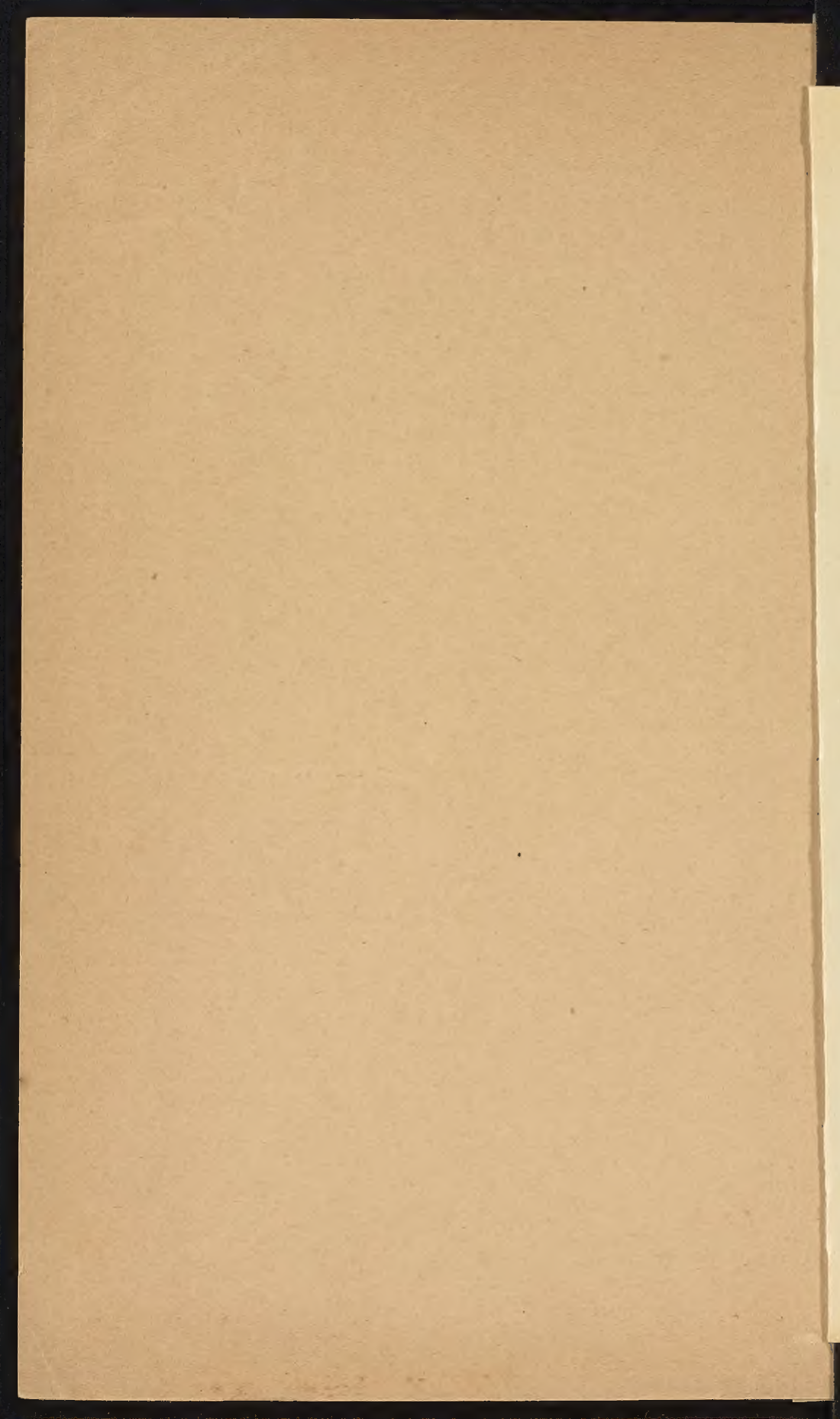
لم يبق ابن بطوطة بفاس طويلا ، إذ وجد في نفسه نزوعا إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، رغبة في أن يكون له على حد قوله ” حظ من الجهاد والرباط “ ، ضد ألفونس الحادي عشر (Alphonso XI) ملك الدولة المسيحية بقشتالة (Castile) ؛ وكانت هذه الدولة قد أخذت تنمو نموا مطردا على حساب الدولة الإسلامية بقرنطة ، وسلطانها وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٤ — ٧٥٥هـ ، ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م) . وكان ألفونس الحادي عشر قد توفي سنة ٧٥١هـ (١٣٥٠ م) ، وهو على حصار جبل الفتح (جبل طارق) ، وقد وصل ابن بطوطة

بعيد ذلك بقليل . على أن السبب الذي حدا به إلى هذا السفر — أكبر ظني — هو أنه رغب أيضاً في أن يزور ما تبقى عليه من البلاد الإسلامية ، بدليل أنه لم يقم بالأندلس طويلاً حتى يستطيع الجهاد والرباط ضد المسيحيين ، وأنه لم يزر قصر الحمراء بغرناطة مع ذهابه إليها ، وأنه أخذ ينتقل من بلد إلى بلد بالأندلس ليصفها وصف السائح المغترب في السفر ، وأنه لم يستقر بفاس سوى فترة قصيرة بعد رجوعه إليها من الأندلس ، بل قام برحلة ثالثة ليري جهة أخرى من البلاد الإسلامية .

وكانت تلك الرحلة الثالثة إلى بلاد السودان وغربي إفريقيا ، فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) ، وأوغل في الصحراء الكبرى مع قافلة للتجار من سجلماسة حتى وصل مدينة "مالي" عاصمة الدولة الإسلامية المعروفة بهذا الاسم ، ورأى نهـم النيجر ، وظنه جزءاً من النيل . ثم زار تنبُكتو (تمبكتو) ، وأخذ في التجول ببلاد السودان الغربي وواحاته حتى وصل تكّداً ، وهي وقتند أكبر مدن إقليم الطوارج من البربر . وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبي عنان يطلب إليه الحضور إلى مراکش ، فتمثله ووصل فاس سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) ، فأقام بها حتى وفاته . وبذلك يكون ابن بطوطة قد زار جميع البلاد الإسلامية ، وهذا فضلاً عن غيرها من البلاد المسيحية كالبلقان والقسطنطينية ، والبلاد الوثنية بساحل المليبار وجزيرة سيلان والصين ، فهو بحق رحالة المسلمين .

عن
محمود كمال حسن
مدرس الخياط والساحة بكلية الآداب
جامعة القاهرة





BOBST LIBRARY



3 1142 01482 0321

Date Due

NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY

C
I
R
C

JAN - 2 1990

70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012

DEC 1 1989

7R

Demco 38-297

NYU - BOBST



31142 01482 0321

G370 .I3

Rihlat Ibn Jubayr wa-Rihlat Ib

EAST